الفصل العاشر

قصة الروائى

إن بيروقراطيى وزارة اللاجئين البافارية قد نيط بهم مهمة مساعدة مسلمى ألمانيا ومد يد العون لهم ... إلا أنهم، وبحلول عام ١٩٦٠، قد أضحوا يجدون صعوبة فى تحديد الجماعات المتنافسة ... الأمريكيون، سياسيو "بون"، الجنود السابقون، و"العرب" من أمثال سعيد رمضان.

ثم فجأة ... اصطدم أولئك البيروقراطيون بأحمد كمال - وهو كاتب ومغامر وجاسوس، وأحمد كمال هذا هو أحد أبرز الشخصيات الكاريزماتية، وأكثر المتسمين بغرابة الأطوار ممن انخرطوا فى ركاب الجهود الأمريكية لتوظيف الإسلام واستغلاله. وكان الرجل دائم التطواف فى جهات عديدة ... فمن كاليفورنيا إلى تركستان، ومن إندونيسيا إلى الجزائر - زعم كمال دائما أنه نصير المسلمين المضطهدين أينما كانوا ... رغماً عن أنه عادة ما كان يعمل لحساب هذه الوكالة الاستخباراتية الأجنبية أو تلك. هذا، ولم يصل كمال ميونيخ وحده، وإنما وصلها متدثرا بأحدث "صرعاته" ... منظمة خيرية تدعى "جماعة الإسلام". أما الهدف ... فكان بسط النفوذ على جماعة المسلمين هناك.

وفي كانون الثانى/ يناير ١٩٦٠، أعلن مسئولو "جماعة الإسلام" نقلهم لأنشطتهم من النمسا إلى ميونيخ ... وسرعان ما أمطروا المسئولين الألمان بوابل

من المنشورات والبيانات الشارحة لتأسيس الجماعة. وهنا أصيب بيروقراطيو وزارة الشئون الاجتماعية الألمانية بحيرة وارتباك. فوفقا لما كتبه مسئول منهم فى "بون" إلى نظيره البافارى: "لا أخال أنه من الممكن توحيد الجماعات المتنافسة، تحديدا جماعة فون منده أو إدارته الدينية، وجماعة إبراهيم كوجا أوغلو، وتلك الجماعة التى حلت مؤخرا بالبلاد ... جماعة الإسلام لأحمد كمال".

أما رجال "فون منده"، فكانوا يسعون إلى كسر شوكة "سعيد رمضان" عن طريق التماسهم من المسئولين بالسلطات البافارية عرقلة جهوده ومساعيه الرامية إلى بناء مسجد بميونيخ ... إلا أن المسئولين كانوا، آنذاك، مشغولين للغاية بأحمد كمال من أن يستجيبوا لمطلب "فون منده". أما "جماعة الإسلام" لصاحبها أحمد كمال، فكانت تقوم بالتشويش على تحركات "سعيد رمضان"، لتبذر بذلك بذور الشك لدى بيروقراطيي بافاريا، ومن ثم تتيح الفرصة لرمضان المضى قدما دونما عائق.

إن حيرة مسئولى بافاريا وارتباكهم لأمر يمكن تفهمه على ضوء ما حوته منشورات "جماعة الإسلام" وبياناتها ... إذ كانت غاصة بمقولات عن تاريخ تلك الجماعة الغرائبى ... وهو بالطبع من نسج الخيال الروائى لأحمد كمال، والذى صور "الجماعة" كجماعة أخوية مقدسة ولدت من رحم المعارك، لتنافح الآن عن المسلمين المضطهدين أينما كانوا. ووفقا لمنشوراتها، فإن "جماعة الإسلام قد أنشئت فى تركستان ما بين عامى ١٨٦٨ و١٨٦٩ خلال الفترة التى شهدت اعتداءات روسيا القيصرية على المدافعين عن إقليمى بخارى، وخوارزم. إن جماعة الإسلام ... ذلك التنظيم الأخوى لينتظم رجالا متحدين ينتمون إلى سائر الطبقات والمهن، وهو التنظيم الذى يرى أن دحر التوغل الروسى فى أراضى الشعوب التركية مهمته المقدسة".

وتدور عجلة الأحداث لتشهد هزيمة المدافعين عن الإقليمين أمام جحافل الجيش القيصرى، لتنتقل "جماعة الإسلام" إلى الخارج وتتحول جماعة خيرية، إلا أنها تقوم - مع ذلك - بدعم حركات التمرد العسكرى ... فعلى سبيل المثال، قامت "جماعة الإسلام" بإرسال مراقبين عنها إلى جزر الأنتيل الهولندية حين نال الإقليم استقلاله ليصبح دولة إندونيسيا. ومن العاصمة "جاكارتا" عمدت الجماعة إلى تنظيم صفوف المحاربين من أجل الحرية وتوحيد جهودهم، وذلك فى كل من تونس والمغرب ومناطق أخرى من القارة الإفريقية. وتمضى الأحداث ... لتصبح أكثر غرائبية، إذ تعمد "جماعة الإسلام" إلى إرسال بعثات وحملات إلى إفريقيا، حيث قام أعضاؤها بجمع ٦٦٠ كيلو غرام من المعادن النفيسة، وهو ما أضيف إلى الثروات الشخصية لمحاربى آسيا الوسطى القدماء. وبنهاية عام ١٩٥٧، أضحى لدى "جماعة الإسلام" أصول تقدر بـ ٣٢٨,٥٥٧ دولار أمريكى (أى ما يعادل ٢,٤ مليون دولار أمريكى بأسعار اليوم). ثم قامت الجماعة بعمليات

لنجدة مسلمى الأردن - وبخاصة الفلسطينيون - كذا، فقد افتتحت مكتبا لها فى فيينا لتنسيق جهود المعونة للمسلمين هناك.

وبالرغم من تلك الجهود جميعها، فالجماعة لا يبدو أنها كانت تبذل كثير جهد فيما يخص العمل الخيرى ... إذ لم تتضمن أيا من نشراتها البالغ عدد صفحات الواحدة منها ثلاثين صفحة - إلا القليل من الأنباء عن مشروعات محددة. أما معظم المقالات، فقد عمدت إلى شرح مؤيد بالحجج لمستقبل الإسلام، وكيف أن منظمات العون المسيحية كانت تغفل عن المسلمين وتتجاهل أمرهم. أما العون الحقيقى الوحيد الذى كانت "جماعة الإسلام" تمنحه، فكان إدارة الأموال لبرنامج الولايات المتحدة للاجئين - وهو مشروع من مشاريع الحرب الباردة كان الهدف منه تشجيع مواطنى البلدان الشيوعية على هجرة أوطانهم، حيث عمد إلى منح النازحين أموالاً تعينهم على التوطن بالغرب[٨٨]. هذا، وقد استهدفت "جماعة الإسلام" أن تدرج أكبر عدد ممكن من النازحين واللاجئين على قوائمها المالية - لتضمن تمويلا دوريا منتظما من وكالات العون الأمريكية فضلا عن المفوضية العليا للأمم المتحدة لشئون اللاجئين، والتى كانت تمول أحد مشاريع الجماعة. بيد أن أحوال اللاجئين الأوروبيين كانت آخذة فى التحسن، وجاهدت "جماعة الإسلام" لإيجاد المزيد من المستهدفين، وبخاصة المسلمون ... وهو ما أدى إلى ابتزاز "اللاجئين" وسرقتهم. ووفقا لأحد العاملين بجماعة الإسلام ويدعى "تهامى بن أحمد الواحلة"، فى لقاء جمعنى به فى الثلاثين من تموز/ يوليو ٢٠٠٦ فى مونتليمار بجنوب شرقى فرنسا ... فحين كانت الجماعة تعمل فى إيطاليا، إذ بها تصطدم بالوكالات الكاثوليكية، حين حاول أعضاء الجماعة إدراج مسلمين على قوائم المستحقين كانوا مقيدين بالفعل على القوائم المالية لتلك الوكالات الكاثوليكية. أما فى النمسا، فقد وقعت الجماعة فى نزاع مع مكتب اللاجئين

والهجرة هناك، وهى وكالة تابعة لوزارة الخارجية الأمريكية، وذلك بشأن عدد الحالات التى تشرف عليها. هذا، وقد عمد المكتب إلى وقف تمويل الجماعة، إلا أنه قد أعاد ذلك التمويل فى أعقاب قيام أحمد كمال بتنظيم تظاهرة قادها زعماء مسلمون. وحين قدمت الجماعة ميونيخ، كان أول ما فعله ممثلها، ويدعى "أحمد بلاغى"، وهو بوسنى - القيام بزيارة معسكرات النازحين بالمدينة. ووفقا لخطاب أرسله "أحمد بلاغى" بتاريخ السابع عشر من أيار/ مايو ١٩٦٠ إلى "فالتر شتاين"، وزير العمل البافارى ... فقد لجأ أحمد كمال إلى تصوير نفسه "فوتوغرافيا" قبالة كوخ ثبتت عليه لافتة "تحذير صحى" ... ونظرا لمشكلة اللاجئين التى كانت آخذة فى التضاؤل والانزواء، فقد بدا ذلك كحيلة استعراضية بارعة.

ورغماً عن ذلك كله، فقد أُخذت "جماعة الإسلام" على محمل الجد ... إذ أشار أحمد كمال إلى أن الجماعة كانت تلقى تأييدا ومساندة من الحكومة الأمريكية مشيرا إلى أن "جماعة الإسلام" هى الجمعية الخيرية الإسلامية الوحيدة المعترف بها من قبل "المجلس الأمريكى للوكالات الطوعية". إن هذا المجلس الاستشارى الأمريكى كان يقوم بتسجيل أمثال تلك الجمعيات الخيرية دون أن يكون له دور فى فحصها أو تدقيق بياناتها ... إلا أن النبرة قد بدت رسمية حيث أوضحت خطابات "جماعة الإسلام" تلك الرابطة، وذلك فضلا عن كون الجماعة معفاة من الضرائب فى الولايات المتحدة الأمريكية، وعلاقاتها بالمفوضية العليا للأمم المتحدة لشئون اللاجئين. كذا، فقد أبدى السياسيون تعضيدهم وموآزرتهم للجماعة. فوفقا لصحيفة Munchener Merkur البافارية فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٦١/١/٢٤ ... فحين قام المشير محمد أيوب خان - رئيس باكستان آنذاك - بزيارة إلى ألمانيا، عمد إلى لقاء أحمد كمال فى ميونيخ حيث تعهد بدعم "جماعة الإسلام". ووفقاً للصحيفة

ذاتها، ولكن فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٦١/٦/٦، فإن "جماعة الإسلام" قد نظمت مؤتمرا كبيرا فى ميونيخ تناول "الإسلام والغرب" - وكان من بين الحضور كبار مسئولى الجماعة، وبعض السياسيين من ذوى الشأن والمكانة، من أمثال "فالتر شتاين" وزير العمل البافارى. كذا، فقد أعجب "فون منده" بالأمر إذ راق له. لذا، فقد قامت "إدارته الدينية" بتشجيع أعضائها على الانضمام إلى "جماعة الإسلام" ... ففى خطاب بتاريخ السابع والعشرين من شباط/ فبراير ١٩٦٠، خاطب "نور الدين نمنقانى" أعضاء إدارته الدينية، ناعتا إياهم "بالإخوة فى الإسلام" - بأن "جماعة الإسلام" هى الجمعية الخيرية الإسلامية الوحيدة المعترف بها رسميا فى العالم.

وفى غضون أقل من عام واحد، أحرزت "جماعة الإسلام" نجاحا مدويا إلى الحد الذى ذهبت معه وسائط الإعلام المحلية إلى أن الجماعة هى القائمة على إدارة مشروع مسجد ميونيخ. ففى بواكير عام ١٩٦١، قامت صحيفة Munchener Merkur - بالفعل - بوصف مسجد ميونيخ باعتباره مشروع "جماعة الإسلام"، حيث أوردت على صفحاتها صورة لأحد مسئولى الجماعة وهو يفحص خطط إنشاء المسجد.

أما فى عددها المؤرخ ١٩٦٠/٦/٢٤، فقد أوردت الصحيفة أن "العاصمة البافارية، ميونيخ، قد أضحت مركزا للمسلمين الذين يحيون فى غرب أوروبا" مشيرة إلى انتقال "جماعة الإسلام" إلى ميونيخ كدليل على صحة ذلك القول. واستطردت الصحيفة قائلة: "إن جماعة الإسلام قد اضطلعت بالدعم الثقافى لإخوتها فى الإسلام ... حيث من المزمع إقامة مسجد ومركز ثقافى ودار حضانة للأطفال فى ميونيخ".

أما من منظور يومنا هذا، فقد يبدو ذلك كله خدعة محكمة متقنة، بيد أنها لم

تكن كذلك. فجماعة الإسلام قد كانت مدعومة – على وجه التحقيق – من قبل الاستخبارات الأمريكية ... حيث أرسل أحمد كمال، على الأرجح، إلى ميونيخ ليشد عضد "سعيد رمضان" ويكون عونا له ... وذلك، لضمان أن يكون زمام السيطرة على الحياة الدينية لمسلمى ميونيخ فى أيدى مؤسسة أمريكية.أما ما لم يدركه المسئولون الأمريكيون فهو أن كمال لم يكن ألمعيا فحسب، بل كان نمطا متقلبا يروغ منك كما يروغ الثعلب. كذا، فمن الأرجح ألا يكون أولئك المسئولون قد أدركوا أن قصة حياته بأكملها كانت خيالا محضا بمثل ما كانت رواياته، وما حفلت به من أحداث وشخوص.

إن التحقق من الحقائق الشخصية الخاصة بأى من الأفراد الضالعين فى المهام الاستخباراتية لهو أمر شاق عسير، أما حياة أحمد كمال العامة فقد مثلت صعوبة أكبر ومشقة أعظم. ففى حين لم يأمل أناس من أمثال "روبرت دريهر"، و"غرهارد فون منده" فى أكثر من خمول الذكر، فإن أحمد كمال لم يهرب مطلقا من بريق الشهرة وألق الأضواء ... فخلال السواد الأعظم من عقد بأكمله، عمل كمال روائيا وابتغى أن تجد رواياته وأعماله منافذا للبيع، إلا أنه قد نسج حول نفسه شخصية عامة شديدة الغرائبية لدرجة أن تماهت شخصية الرجل الحقيقية فى تلك المختلقة، أو كادت تضيع بالكلية.

أما الرواية الرسمية فمباشرة، وإن ظلت غرائبية. فعلى الغلاف الخلفى لروايات أحمد كمال، أو بالأحرى نسخ إعادة الطبع التى قام بها ابنه "طوران" فى عام ٢٠٠٠، أدرجت نبذة مختصرة عن حياة المؤلف – وذلك وفقا لما أخبرتنى به طورا كمال، ابنة المؤلف، فى لقائى بها فى ميونيخ فى السادس عشر من حزيران/ يونيو ٢٠٠٦ . وبقراءة النبذة المدرجة، ندرك أن أحمد كمال قد ولد فى محمية للهنود الحمر فى كولورادو بالولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩١٤ لأبوين ذوى قومية

تركية تترية نجحا فى الفرار من الاضطهاد القيصرى الروسى. "إن التكوين الفطرى لأحمد كمال ... ذلك التكوين الذى احتضنته جيناته ... قد طبع جميع مناحى حياته، إن كان سابرا أعماق بحر لجى، أو كان مقاتلا جويا ذا جلد، أو فارسا فذا مغوارا، أو مقاتلا شرسا عنيدا، أو نصيرا لحركات الاستقلال القومى" ... أو هكذا ما ورد فى وصفه مكتوبا على أغلفة رواياته.

وحين شب عن الطوق، وفقا للرواية، ارتحل الفتى إلى موطن أجداده بتركستان. وهناك ... قاد ثورة "باسمشى"[٨٩]. كذا، فقد قام كمال، لاحقا، بالقتال فى صفوف الثوار المسلمين فى غربى الصين، فضلا عن تأييده ودعمه لحركات الاستقلال فى كل من إندونيسيا والجزائر، وقيادته لجبهة تحرير روهنغا الإسلامية لتحرير أراكان فى بورما خلال ثمانينيات القرن العشرين.

إن الموجز السابق ليحوى جانبا كبيرا من الحقيقة، إلا أن نظرة خاطفة عجلى لتثير بعض أسئلة. فإذا كان أحمد كمال قد ولد فى عام ١٩١٤، فكيف تسنى له، إذا، المشاركة فى، بل وقيادة ثورة "باسمشى" تلك التى اندلعت عام ١٩١٦؟! كذا، فإن السجلات الأرشيفية لتثير قضايا حيوية أخرى مثل الاسم الحقيقى لأحمد كمال، والتكوين الإثنى الذى من المفترض أن كان دافعا له حافزا لمسيرته.

فوفقاً لملف أحمد كمال لدى مكتب التحقيقات الفيدرالية، فقد ولد تحت اسم سيمارون هاثاواى، فى الثانى من شباط/ فبراير ١٩١٤ فى أرفادا ... تلك الضاحية الراقية فى دنفر بولاية كولورادو الأمريكية. أما أبوه، فيدعى جيمس وورث هاثاواى، وأما أمه فاسمها كارولين هاثاواى ... غير أن اسمها قبل الزواج كان تحت لقب "غروسمان"، حيث لم تبد صورتها الفوتوغرافية أية ملامح شرق آسيوية

مميزة. أما الأب، فوفقا لما ورد باستمارات جواز سفر أحمد كمال عبر سنين طويلة ... فلقبه هاثاواى. إلا أن استمارة جواز سفر أحمد كمال لعام ١٩٥٢ قد أبانت إدراجه لاسم والده "قرة يوسف". ووفقاً لطورا، ابنة أحمد كمال، فقد كان والده يكبر أمه ... إذ كان الأب فى الرابعة والستين، حين كانت الزوجة فى السادسة عشرة من عمرها. كذا، فقد كان له زوجات أخريات فى تركستان. أما الأب، فقد ترك زوجته بالولايات المتحدة الأمريكية قاصدا تركستان للمشاركة فى ثورة "باسمشى"، على الأرجح. ولعل هذا ما يفسر وجود رجل باسم جيمس وورث هاثاواى ... لعله زوج أم كانت أم أحمد كمال قد تزوجت به بعد أن هجرت من قبل الرجل المسن، أو بعد أن ترملت بعده.

وتشير سجلات مكتب التحقيقات الفيدرالية إلى أن المدعو سيمارون هاثاواى قد ارتحل عام ١٩٣٥ أو نحو ذلك، قاصدا آسيا الوسطى. وهنا ... قد يكون للخيال الذى ارتبط بشخصيته مهمة توفير مفاتيح وإتاحة شواهد لملء الفراغ الوارد بسيرته الذاتية، أو قد يكون ذلك الخيال، على أقل تقدير، عونا لفهم دوافع الرجل للترحال صوب موطنه الأم. إن الراوية فى أحد أعماله القصصية قد ذهب بحثا عن والده، ليعتنق الإسلام بعد ذلك. إلا أنه، وبحلول عام ١٩٣٥، كان أوار ثورة "باسمشى" قد خمد وخبا منذ زمن ليس بالقصير. ولربما كان هاثاواى هذا قد التقى عددا من المقاتلين المهزومين ليتوهم كونه قد شارك معهم فى ثورة "باسمشى". ووفقا لملف الرجل لدى مكتب التحقيقات الفيدرالية، فإنه قد تزوج خلال مكوثه بآسيا الوسطى ... إلا أن زوجته ذات السبعة عشر ربيعا قد اخترمتها المنية بعد شهر واحد فقط من الزواج نتيجة تعرضها لتعذيب لم يكشف عن كنهه، وذلك بمقاطعة "سينكيانغ" الصينية[٩٠]، حيث كان تمرد ضد الحكم الصينى قد أخذ ينشط حينذاك. وحيث دين بكونه جاسوسا، قامت

السلطات الصينية باعتقال هاثاواى فى منطقة "قومول" بتركستان الشرقية ... إلا أنه قد نجح فى الفرار من معتقله.

وحين عاد هاثاواى إلى الولايات المتحدة الأمريكية، قام بإصدار كتابه الأول... وهو عمل مغرق فى الخيال، أطلق عليه هاثاواى : "المسائل السبع للأمير تيمور". والكتاب إعادة لسرد السيرة الأسطورية لتيمور لنك ... ذلك الحاكم المغولى - التركى إبان القرن الرابع عشر الميلادى، والذى غزت جيوشه وقواته أراضى شاسعة بأوراسيا. هذا، ويتناول الكتاب طرح تيمور لنك أسئلة عن الكون وتلقيه أجوبة عنها من جندى بسيط حديث السن - ربما كان هاثاوى الصغير فى تلك الرواية قد تخيل علاقة ما ربطت تيمور لنك بوالده. وباعتماد تقليد روائى معتاد، رأى هاثاواى نفسه مترجما لذلك النص التاريخى القديم ليضيف ذلك التفسير ويدرجه فى صفحة العنوان من الكتاب على النحو التالى: "نقلا عن المخطوطة التركية الأصلية، والتى وضعها أحمد بن قرة يوسف بن قرة يعقوب". إن قرة يوسف المذكور هنا ليذكرنا بسميه الوارد باستمارة جواز سفر أحمد كمال. والكتاب المزود بالعديد من الرسوم التى نثرت بسخاء ما بين دفتيه ... تلك المرسومة على غرار نمط "الآرنوفو" Art Noveau، والتى صور فيها تيمور لنك وبلاطه التترى على نحو خيالى محبب جذاب ... قد نشر بواسطة دار نشر صغيرة للفنون فى سانتا أنا بولاية كاليفورنيا الأمريكية. هذا، ولم يطبع من الكتاب إلا عدة مئات من النسخ، حيث تم ترقيم صفحاته بخط اليد. وبخلاف النسخة الوحيدة الموجودة بمكتبة الكونغرس الأمريكى، فمن المستحيل العثور على نسخ أخرى من الكتاب. وعند هذا الحد، كان سيمارون هاثاواى قد شرع فى التحول إلى أحمد كمال. أما حقوق نشر الكتاب وطباعته، فكانت محفوظة لسيمارون أحمد كمال هاثاواى، وذلك على أرجح التقديرات. وفى الأول من

تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٨، صادقت إحدى المحاكم بهوليوود الأمريكية على تغيير الاسم تغييرا نهائيا، وذلك ليصبح "هاثاواى" ... ذلك الاسم الذى لن يعمد إليه ثانية فى التداول ... الروائى أحمد كمال.

هذا، وسرعان ما سيشرع أحمد كمال فى الابتعاد عن والدته، حيث عمد إلى تقريعها وتوبيخها بشدة. فحين ماتت، وجدت طورا كمال أباها فى غرفة مكتبه يبكى، فسألته عن السبب إذ خالت أنه لم يحب أمه مطلقا ... فأجابها: "إننى أبكى على ما لم يكن". هذا، وربما تكون الصعوبة التى أحاطت علاقتهما ترجع أسبابها إلى اضطرابات نفسية. إن أحمد كمال قد عمد إلى تسجيل اسم أمه فى إحدى استمارات جواز سفره، كما يلى: كارولين كمال هاثاواى ... أكان الرجل يتخيل هوية إسلامية لها؟ أم كان مستاء كونها لم تعمد إلى تنشئته مسلما مما أجبره على ترك البيت للبحث عن والد كان قد مات؟ هل يفسر ذلك دعمه الحماسى المحموم، بل والعنيف، لقضايا المسلمين؟

فى عام ١٩٤٠، نشر أحمد كمال رواية مغامرات جرت أحداثها فى تركستان ... حيث عمد إلى إخراجها فى أبهى صورة وأرقى بناء، إذ تعاقد على نشرها مع إحدى أبرز دور النشر الأمريكية آنذاك ... وهى دار نشر "تشارلز سكريبنر"، والتى كانت تنشر أعمال الروائى الأمريكى الأشهر "ارنست هيمنغواى". وتبدأ أحداث رواية كمال، "أرض بلا ضحك"، كقصة تقليدية من قصص المشاق والحرمان، حيث يقوم أحد شخوصها، ويدعى كمال بالسفر خلال الشتاء القارس عبر ممرات جبلية من الهند مرورا بالتيبت باتجاه تركستان الشرقية، أو ما يعرف اليوم بـ "سينكيانغ". ولربما كانت تلك الرحلة الواردة بالرواية هى إعادة سرد لرحلة أحمد كمال ذاتها للعودة إلى تركستان عام ١٩٣٥ للبحث عن والده. هذا، وقد قام المؤلف بسرد تفاصيل مثيرة ... تفاصيل كثيرة للغاية يصعب أن تكون

بأكملها من نسج الخيال – مثل لقاء كمال، فى الرواية، بالزعيم الثائر المتمرد "ما هسى يونغ"، وذلك فى تركستان الصينية ... وهو الذى كان يصارع حكومة "الكومينتانغ"[٩١] المتداعية رغبة فى السيطرة على الإقليم. ويقوم كمال – فى الرواية – بدور ضابط فى جيش "ما هسى يونغ" حيث يتم إرساله إلى خارج البلاد لشراء السلاح. وفيما كان كمال يحاول أن يشق طريقه – برياً – صوب الصين الشرقية ليركب سفينة تعيده إلى الولايات المتحدة الأمريكية، إذ يتعرض للخيانة ويزج به فى السجن، إلا أنه يتمكن من الهرب والعودة إلى وطنه. هذا، وقد كتبت "النيويورك تايمز" فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٤٠/٣/٣١ نقدا تحليليا مطولا عن رواية "أرض بلا ضحك" ... حيث وصفتها بأنها قصة مغامرات مثيرة ذات نبرة تفاخرية متعالية نحت فى بعض الأحايين إلى ضروب من المداهنة. بيد أن الرواية – باعتبارها صادرة عن قلم نصير لكل ما هو إسلامى – بدت غريبة متناقضة ... إذ وضع أحمد كمال، نظرا لجهله بالإقليم، جميع الجماعات الإثنية فى سلة واحدة، وسماهم جميعا "التتر" ... أولئك المتسمين على الدوام بالوحشية والفظاظة ذوى اللهجة المتكلفة الرنانة ... غرائبيات عمد إليها كيما تروق لذائقة القارئ الغربى.

وقد زعم أحمد كمال أنه عاد إلى تركستان فى عام ١٩٤١ ليستعيد بعضا من مستندات، لتندلع الحرب حيث يقوم اليابانيون باعتقاله. وكان أحمد كمال، آنذاك، قد التقى زوجته الثانية بالفعل، وهى صحافية وألسنية تترية تدعى "أمينة" كانت تحيا مع الروس البيض بالمنفى فى "تيانجين" بشمال الصين. هذا، وقد أمضى الزوجان – كمال وأمينة – مدة اعتقالهما يكتبان، حيث عمد كمال إلى تضليل الحراس اليابانيين عن طريق القيام بالكتابة بالتركية مدعيا أنها ترجمة لمعانى القرآن ... كانت تلك هى الرواية التى أدلى بها كمال لصحيفة "لوس انجيليس

تايمز" لدى عودته إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤٥، وذلك وفق ما جاء بمقالة وردت بعددها الصادر بتاريخ الحادى عشر من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٤٥ ... مع صورة لكمال تعلو فيها وجهه تعابير موحية عميقة، وهو يحلق حول أمه التى كانت تقوم بفحص ما زعم أنه "قرآن".

إن القوة البدنية والحضور الذهنى هما العنصران اللذان تذكرهما مجايلو أحمد كمال، واللذان كانا يميزانه عن غيره. فبمثل ما كان سعيد رمضان، لم يكن كمال طويلا أو مهيبا ... بيد أن حضوره الطاغى قد كان على الدوام مثار حديث الكافة ... تلكم الكاريزما التى كانت تنبعث منه. أما قامته فبلغ ارتفاعها ١٧٣ سم، وأما جسمه فنحيل ولكن قوى. وكان كمال - وحتى الثلاثينات من عمره - ذا شعر أرجوانى يشع من رأسه، حيث كان يحتفظ به قصيرا للغاية حتى يخيل للمرء أن الموسى قد أعملت فى رأسه فبدا حليقا ... ليصبح أصلعاً - فى النهاية، بما جعله يبدو أكثر جدية وعمقا. وكان كمال ذا شاربين صغيرين، وجمجمة بدت نافرة خلف بشرته المشدودة ... أما عيناه فكانتا متقدتين كجمر الغضا، وأما خده الأيمن فكانت به ندبة اتخذت شكل الرقم (٧). هذا، ولم تكن تبدو على محياه أثار الزمن، حيث بدا وكأنه لم يهرم ألبتة منذ عقده الرابع وحتى عقده الثامن.

ولم يكن كمال يطيق أية معارضة - حتى فى نطاق أسرته. ولاتسامه بشخصية صارمة ونمط انضباطى شديد، فقد أخبر أولاده - بالفعل - عن قيامه بقتل عدة أفراد، كان من بينهم رجل دين قام بمعارضته. أما ابنته طورا، فكانت تحسب أن ذلك لا يعدو أن يكون ضربا من تفاخر أو تهويل ... إلا أنها آلت إلى تصديقه بعد أن تركت المنزل ... إذ دار حديث بينها وبين أناس كانوا يعرفونه ... وتقول طورا: "إن أبى قد قام بالقتل، تحقيقاً... لقد حسبت أنه ربما كان يخبرنى

بروايات من هذا القبيل فحسب، كون ذلك غريبا على مسامعنا، إلا أن آخرين قد أخبرونى بمثل ما حكاه لى أبى".

وأيا ما كانت كتاباته فى الصين، فقد عاد كمال إلى الولايات المتحدة الأمريكية مشبعا بأفكار عديدة ... فعلى مدار أربعة أعوام، عمد كمال إلى نشر ثلاثة كتب. والأمر المثير للدهشة، أن الرجل الذى استهل مسيرته بأفكار رومانسية عن تركستان وإرثها الإثنى قد أنتج كتبا تجارية متعاقدا مع العديد من دور النشر الرائجة من أمثال Double Day وRandom House. أما أعماله فكانت متنوعة. فإحدى رواياته واسمها Full Fathom Five، والتى صدرت فى عام ١٩٤٨ ... تدور أحداثها ضمن محيط جماعة صائدى الاسفنج الأمريكيين ذوى الأصول اليونانية، وذلك بولاية فلوريدا الأمريكية. وتصف الرواية زيهم الجميل والغريب، وكذا نمط حياتهم الودود الحانى. والراوية هنا هو رجل يدعى "أليك باراديسيو" ... رجل يؤمن بأن بإمكانه حل أية مشكلة باستخدام قبضة يده. وفى رواية أخرى صدرت عام ١٩٥٠ بعنوان One-dog Man، يتناول كمال مذكرات كلب ما. أما "المشلوح" The Excommunicated الصادرة عام ١٩٥٢، فرواية رومانسية مثيرة تدور أحداثها فى شنغهاى بالصين ... هذا، وقد اشترك فى تأليفها مع "تشارلز غوردون بووث"، وهو كاتب بريطانى عاش لسنوات فى ولاية كاليفورنيا الأمريكية، يكتب الروايات البوليسية وسيناريوهات الأفلام. أما مراجعات الكتب فكانت إيجابية تقريظية حيث طلب إلى كمال القيام بكتابة سيناريو لبعض الأعمال ... وقد شهد كمال ازدهار مساره الروائى وانتعاشه، إلا أن أزاهير ذلك المسار قد صوحت. فقد شهدت رواية "المشلوح" نهاية ذلك المسار ... وكأنما قد اختفى ذلك الروائى عن أنظار الجمهور.

إلا أنه، وبعد مضى نحو عامين – أصدر كمال كتابا جديدا كان له دلالة

على انخراطه فى المهام الاستخباراتية التى نيطت به. أما الكتاب "الرحلة المقدسة: الحج إلى مكة"، فقد صدر - فى البداية - باللغة العربية. وفيه سعى كمال إلى وصف الحج وصفا دقيقا واسع الأفق قدر المستطاع. ولم يظهر الكتاب بالإنكليزية إلا فى عام ١٩٦١ . هذا، ويبدو التأخير مستغربا، خاصة وأن كمال قد أعلن فى عام ١٩٥٣ بصحيفة Saturday Evening Post فى عددها المؤرخ ١٩٥٣/٩/٢٦ أنه يكتب كتابا عن مكة. ولربما تعلق الأمر بنبرة الكتاب، فأعمال كمال السابقة كانت قصص مغامرات، أما "الرحلة المقدسة" فكانت عملا أقرب ما يكون إلى نسج أنثروبولوجى، خاصة فى تمسكه الصارم بتحرى الدقة المتناهية فى وصفه لرحلة الحج إلى مكة يوما بيوم. إن "الرحلة المقدسة" حين مقارنتها بأعمال كمال الأخرى لعمل يبعث على الملل والضجر ... فهى إيراد جاف للحقائق. لذا، فلم يثر الكتاب شهية الناشرين بنيويورك ليتم إصداره بواسطة دار نشر متواضعة هى Duell, Sloan and Pearce.

وفى كلمته بالنسخة الإنكليزية من "الرحلة المقدسة"، ذهب كمال إلى أنه قد كتب مسودة العمل حين كان يقيم فى "باندونغ" ... المدينة الإندونيسية التى استضافت مؤتمر دول عدم الانحياز عام ١٩٥٥ . وفى أحد ملصقات "جماعة الإسلام" كان الزعم بأن الجماعة كانت تستخدم العاصمة الإندونيسية "جاكارتا" قاعدة لدعم الثوار. ولربما كان ذلك هو حقيقة الأمر، أو لعل كمال قد كان، بالمقابل، يراقب الجماعات الإسلامية لحساب أجهزة الاستخبارات الأمريكية، على الأرجح. فقبل مغادرته الولايات المتحدة قاصدا "باندونغ"، أخبر كمال أحد أصدقائه أنه ذاهب ليعمل هناك لصالح حكومة الولايات المتحدة الأمريكية. وقد أظهر ملف كمال لدى مكتب التحقيقات الفيدرالية دينا قيمته ١٨٧٧,٤٠ دولار أمريكى مستحقا عليه لصالح سفارة الولايات المتحدة بجاكارتا نظير أموال كانت الحكومة الأمريكية قد

أمدته بها لقاء نفقات انتقالاته ... إذا، كان كمال متعاونا مع المسئولين الأمريكيين قبل مغادرته أرض الوطن.

كانت تلك رؤية الاستخبارات الألمانية للأحداث. إذ حوت ملفات "فون منده" لعام ١٩٥٥ تقريرا عن إندونيسيا ... تلك الدولة الشابّة التى كانت - آنذاك - ساحة حرب تنافست فيها الأحزاب المؤيدة للشيوعية وتلك المناهضة لها طمعا فى إحراز الغلبة وفرض السيطرة. أما الأحزاب المناهضة للشيوعية فكانت تضم كتلة إسلامية تحت قيادة وزير حكومى سابق عمد إلى توظيف أموال كان يخفيها بأحد البنوك السويسرية فى تمويل أعمال تخريبية وجهت ضد مؤيدى الشيوعية. ووفقا للاستخبارات الألمانية، لم يكن رجل الاتصال بالخارج خاصة ذلك الوزير سوى أحمد كمال. هذا، ويورد التقرير المذكور تعرض كمال لمحاولتى اغتيال فى "جاكارتا" رحل بعدهما قاصدا برشلونة الإسبانية.

والشئ اللافت أن التقرير قد أورد أن كمال قد رفض عرضا للعمل مباشرة لحساب وكالة الاستخبارات المركزية، وذلك لإيمانه بأن الوكالة تعانى اختراق العديد مَن العملاء السوفييت لها. ثم أعقب ذلك قيام الحكومة الأمريكية بالتقدم بعرض آخر سألت فيه كمال العمل مباشرة لحساب "ريتشارد نيكسون" - نائب الرئيس الأمريكى آنذاك، والذى كان يترأس أيضا مجلس الأمن القومى الأمريكى. ووفقا لتقرير الاستخبارات الألمانية، وافق كمال على العرض المقدم. وفيما قد تبدو تطورات الأحداث تلك عصية على التصديق، فإن مجلس الأمن القومى الأمريكى قد كان يشرف على المهام الاستخباراتية والحرب النفسية من خلال "مكتب الاستراتيجية السيكولوجية"، وخليفته "مجلس تنسيق العمليات". هذا، وقد يكون التقرير الاستخباراتى قد عمد إلى تبسيط تراتبية هيكل الأوامر ليضع أحمد كمال مباشرة تحت نفوذ "ريتشارد نيكسون". وبالرغم من خلو أرشيف "مكتب

الاستراتيجية السيكولوجية"، و"مجلس تنسيق العمليات" من أى ذكر لأحمد كمال ... فإن ذلك لأمر معتاد غير مستغرب، إذ يعمد على الدوام إلى محو أسماء العملاء وإزالتها من الوثائق كافة، حتى تلك التى قد صودق على الإفراج عنها والسماح بنشرها. ومن المؤكد أن أحمد كمال كان يقوم بتنفيذ الأهداف الأمريكية فى إندونيسيا. فإلى جانب قيامه بمساعدة المتمردين المناهضين للشيوعية، عمد كمال إلى استخدام نفوذه وسطوته لدى الحكومة لإلغاء انعقاد مؤتمر "باندونغ" لتجمع دول عدم الانحياز، وذلك وفقا لتقرير الاستخبارات الألمانية. هذا، وكان أحمد كمال موجودا فى "باندونغ" فى الفترة التى شهدت انعقاد المؤتمر، إلا أنه لم يمكث سوى يوم واحد، وذلك لاعتبارات أمنية.

وكان كمال، فى هذه الأثناء، يحيا فى إسبانيا والتى كانت تحت رئاسة الجنرال "فرانكو" آنذاك ... حيث قام أفراد أسرته بتعلم اللغة الإسبانية، كذا فقد قام ابنه، "طوران"، بتعلم دروس الموسيقى على يد عازف "الغيتار" الإسبانى الشهير "اندرية سيغوبيا". ولعل إسبانيا كانت تبدو اختيارا غريبا للعيش بها، بيد أن الاستخبارات الأمريكية كان لديها ارتباطات واسعة وعملاء كثر هناك. فعلى سبيل المثال، كان لراديو الحرية محطة بث إذاعى كبيرة هناك. وقد عمد كمال إلى استخدام إسبانيا قاعدة آمنة له. أما الهدف ... فكان دعم الانتفاضات على امتداد ساحل البحر المتوسط فى بلدان شمال إفريقيا، فضلا عن دعم مسلمى ميونيخ. ولإنفاذ ذلك الهدف، كان كمال بحاجة إلى شخص وفى مؤتمن يقوم مقامه وينوب عنه أثناء غيابه.

نشأ "تهامى بن أحمد الواحلة" فى عائلة جزائرية كبيرة ... وحين بلغ الرابعة عشرة أرسله أبوه لكى يمتهن عملا. ولشغفه بالأرقام والرياضيات وإجادته لهما، فاز تهامى بمنحة لدراسة تصميم الطائرات فى فرنسا عام ١٩٤٩ . وهناك ...

شرع الفتى فى التواصل مع غيره من الطلبة الجزائريين ليدرك أن عليه المساعدة فى جهود تخليص بلاده من ربقة الحكم الكولونيالى الفرنسى. ثم أخذ تهامى يعمل رسولا حيث كان ينتقل ما بين السويد وفرنسا ليستلم الملصقات والمنشورات الدعائية من جبهة التحرير الوطنى. وفى عام ١٩٥٦، سلك تهامى طريقا مختصرة خلال رحلة عودته من السويد إلى مرسيليا الفرنسية مخترقا الأراضى السويسرية ... إلا أن شرطة الحدود السويسرية كانت ترقب وصوله ليزج به فى أحد سجون سويسرا.

وسرعان ما تأتى النجدة ... من أحمد كمال. فبعد سماعه من بعض أفراد جبهة التحرير الوطنى باعتقال تهامى، قام كمال بالاتفاق مع أحد المحامين لتمثيله والدفاع عنه. وقد نجح ذلك المحامى فى تصوير تهامى كضحية الحماسة الشديدة إلى حد الهوس التعصبى للنائب العام السويسرى "رينيه دوبوا" (الذى قام بالانتحار عام ١٩٥٧ بعد الكشف عن قيامه بالتجسس على السفارة المصرية فى العاصمة السويسرية "برن" لصالح فرنسا). وفى الأول من كانون الثانى/ يناير ١٩٥٧، تم إطلاق سراح تهامى الواحلة ليسافر رأسا صوب المملكة الليبية، وذلك أيضا بفضل جهود أحمد كمال.

وفى اللقاء الذى جمعنى به فى الثلاثين من تموز/ يوليو ٢٠٠٦ فى بيته بمونتليمار بجنوب شرقى فرنسا، قال الواحلة: "لم نتمكن أنا وأحمد كمال من التواصل، إذ لم يكن كمال يتحدث إلا نزرا يسيرا من الفرنسية والعربية، ولم أكن أنا أتحدث الإنكليزية. لذا، فقد قال لى ... يا تهامى! إذا كنا سنتواصل شفاهة، فعليك بتعلم الإنكليزية".

هذا، وقد استصدر كمال جواز سفر ليبيا لتهامى، ثم أرسله إلى "لندن" لتعلم

الإنكليزية. وكان من الممكن أن يبقى تهامي يتخبط على غير هدى في مدينة أجنبية كلندن لا يعلم كيف التحدث بلسان أبنائها، ولكن كمال كان قد تدبر الأمر، فأرسل "جيمس برايس"، ممثل "جماعة الإسلام" في واشنطن إلى تهامي في لندن ليساعده في تدبير شئونه. هذا، وقد أمضى تهامي وبرايس يومين أو نحوهما في فتح بعض الحسابات المصرفية، واستئجار إحدى الشقق السكنية لتهامي، فضلاً عن إدراج اسمه بأحد فصول تعلم الإنكليزية. بل لقد اصطحبه برايس إلى متاجر "ماركس آند سبنسر" الشهيرة لشراء بذلة ومظلة. وبمضي الوقت، قام كمال بتدريب تهامي على كيفية إدارة مؤسسة ما. وهنا يقول تهامي واصفا كمال: "كان رجلا شديد الحزم، بيد أنه كان دبلوماسيا. لم يكن ليصيح أو يرفع صوته صاخبا، وإنما كان المرء يدرك ما يتحتم فعله. كانت تلك شخصيته ... وكان ذلك أسلوبه".

وتمضي الأيام ... ويصبح أحمد كمال معلما لتهامي الواحلة - الذي جعل أولاده الصغار يصحون عند السادسة صباحا ليرددوا عبارات عربية وإنكليزية وإسبانية في ممارسة استظهارية من دون فهم، وذلك لساعة أو نحوها قبل توجههم إلى مدارسهم، وذلك لكونه يذكر أن أحمد كمال كان يتبع الأسلوب ذاته في تعليم أبنائه في مدريد. وهكذا، أضحى تهامي واحدا من أكثر رجال كمال الموثوقين، حيث تم إرساله إلى إيطاليا فلبنان فالنمسا، ثم إلى ميونيخ. وكان تهامي يتوخى الحيطة والحذر في كل ما كان يقوم به. ففي لبنان، زعم الرجل أنه كان يشرف على فصول للحياكة ... تلك الفصول التي كانت حصيلة أعمالها ترفد اللاجئين في الجزائر.

إلا أن صحافيا فرنسيا ينتمي إلى تلك الحقبة قد رأى الأمر على نحو مغاير ... إنه "سيرج برومبيرجيه" مراسل "الفيغارو" الفرنسية، ومؤلف كتاب "الثوار الجزائريون" (باريس ١٩٥٨)، والذي كتب أن "جماعة الإسلام" لم تكن إلا ستارا

لتمويل حركات التمرد من إندونيسيا شرقا إلى الجزائر غربا. وحين وقع العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦، لم تستطع مصر وقتها إمداد جبهة التحرير الوطنى بالسلاح. وهنا يأتى دور "جماعة الإسلام" لترسل السلاح إلى جبهة التحرير، ومن ثم فقد كانت فصول الحياكة فى لبنان تلك ستارا لعمليات تهريب السلاح. ومن المؤكد كون هذا السيناريو يتطابق مع الإطار الزمنى العام آنذاك، ومع الحماسة غير المنقطعة من قبل أحمد كمال لقضايا المسلمين واهتماماتهم. كذا، فلم يكن السيناريو مناقضا لأهداف الولايات المتحدة الأمريكية ... فكثير من رجال السياسة فى واشنطن كانوا يرون ضرورة أن ترحل فرنسا عن الجزائر، ولم يكن يعنيهم – فى الغالب – كون أحمد كمال موآزرا لجبهة التحرير الوطنى. ولكن تبقى معضلة فيما يتعلق بسيرج بروميبرجيه ... تلك المرتبطة بتحرى الدقة، إذ كان لا يفرق بين "جماعة الإسلام" وبين التنظيم الباكستانى الأوفر شهرة والأوسع صيتا، وهو "الجماعة الإسلامية" ... وقد ورد هذا الخلط فى كتابه المذكور آنفا. كذا، فلم ينهض أى دليل يؤيد ما قدمه من أطروحات. فكما ذهب الكاتب والمترجم "نيفيل باربور" فى مراجعته للكتاب ... تلك المراجعة التى وردت فى دورية Foreign Affairs – السنة ٣٥ العدد ١ (كانون الثانى/يناير ١٩٥٩)" – فإنه يصعب أن يكون المرء على يقين دائما مما يعد حقيقة، ومما يعد خيالا".

إن الواحلة لينكر – صراحة – أن تكون "جماعة الإسلام" قد أرسلت سلاحا إلى الجزائر، إلا أنه لا يستبعد إمكانية أن تكون أموال "أحمد كمال" قد استخدمت لشراء أسلحة، إذ يقول: "لم يقم أحمد كمال بجمع الأموال مباشرة من أجل شراء السلاح، بل لأغراض إنسانية ..." ليهز كتفيه استهجانا. أما "وكالة الاستخبارات المركزية"، فقد ذكر الواحلة أنها كانت على علم تام بممارسات "جماعة الإسلام"، ويقول: "إن الوكالة كانت تقوم بمراقبة كمال على الدوام".

ثم سألته عن ردة فعل كمال.

"لقد عمد إلى حيلة جد بارعة ... لقد طلب إلى أحد عملاء الوكالة أن يعمل لحسابه".

"فمن كان ذلك العميل؟" سألته مستفسراً.

"لقد كان جيمس برايس".

لتزداد دهشتي ... "جيمس برايس ...؟! ممثل جماعة الإسلام الذي أرسله كمال إليك في لندن؟! عجباً، أيعمل رجل بوكالة الاستخبارات المركزية لحساب كمال؟!"

"أجل" ... أجابني الواحلة ... "إلا أن ذلك لم يكن ليعني شيئا لكمال الذي قال: "لا يوجد لدينا ما نعمد إلى إخفائه. بإمكانك أن ترسل من شئت ليعمل لدينا ويرى كل ما نقوم به ... كل شئ ... هلم انظر ما نقوم به وأخبر رؤساءك ... عندها سنعلم أننا لا نخفي شيئا ألبتة"".

ذلك احتمال قائم، إلا أن ثمة احتمالا آخر وهو أن كمال كان يعمل بالفعل لحساب "وكالة الاستخبارات المركزية"، وأن جيمس برايس كان يحل محله حين تقتضي الضرورة. هذا، وقد عمل برايس لاحقا بمكتبة الكونغرس الأمريكي، حيث قام بكتابة تقرير رائع عن "راديو الحرية" بعد أن انكشفت العلاقة التي ربطت الراديو بوكالة الاستخبارات المركزية. ومن الجلي أن برايس قد كانت له روابط وثيقة مع المسئولين بميونيخ ... أبدى العاملون بأمكومليب ارتياحهم حين علموا أن برايس يقوم بكتابة التقرير، وتظهر المواد الأرشيفية أنه قد ناقش التقرير معهم عن طريق خطاباته المرسلة إليهم، وذلك قبل نشر التقرير. إلا أن القضايا الكبرى كانت عصية على أن يتيقن المرء بشأنها، ومن ثم صعوبة إثبات وقوعها بالفعل: فوكالة

الاستخبارات المركزية ترفض أن تفرج عن أية بيانات خاصة بجماعة الإسلام، مشيرة إلى كون الأمر شأنا من شئون "الأمن القومى" بما يعد استثناء من "قانون حرية المعلومات" ... أما برايس، والذى لا يزال على قيد الحياة، فقد رفض أكثر من طلب لى لإجراء حوار معه.

قدم تهامى الواحلة ميونيخ فى الوقت الذى كان الإرهابيون المؤيدون للنهج الفرنسى يستهدفون رجال الأعمال من ألمانيا الغربية لبيعهم الثوار الجزائريين أسلحة وعتادا. ففى السابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٠، ركب رجل الأعمال البافارى "فيلهلم بايزنر" سيارته ... وما أن أدار محركها حتى انفجر انفجارا مدويا كاد الرجل معه أن يقذف به من خلال سقف السيارة ... ذلك أن قنبلة قد تم تثبيتها فى محرك السيارة لتنفجر وتمزق رجليه وتصيب بعض المارة. هذا، وقد أفلت "بايزنر" من الموت بأعجوبة ... ولكن الرسالة كانت واضحة جلية: "يجب على رجال الأعمال الألمان أن يكفوا عن بيع السلاح لمتمردى شمال إفريقيا المسلمين المناهضين لفرنسا". هذا، وقد كانت اليد الحمراء La Main Rouge وراء الحادث ... واليد الحمراء هى عصابة إرهابية قامت بتكوينها أجهزة الاستخبارات الفرنسية، عصابة عمدت إلى اغتيال أكثر من ٢٠٠ شخص منهم ١٣٥ فى سنة ١٩٦٠ وحدها، حيث كانت تنشط فى بلدان المغرب العربى وأكثر من خمس دول أوروبية. لقد كان "بايزنر" أحد أشهر تجار السلاح الألمان سيئى السمعة، حيث كان فيما قبل مسئولا نازيا بارزا ... وهو الرجل الذى اعتقد الدبلوماسيون الأمريكيون أنه يرفد متمردى شمال إفريقيا بالأسلحة والعتاد الحربى. أما تهامى الواحلة، فقد نفى عن نفسه تهمة تصدير السلاح، إذ قال إن وجوده كان ليحل محل "أحمد بلاغى" ممثل "جماعة الإسلام" بميونيخ، والذى تم الزعم كونه قد أخبر الألمان بأن "الجماعة" ما هى إلا ستار لأنشطة سرية.

وعلى مدار عام ١٩٦١، شرعت "جماعة الإسلام" تأتى بمزيد من أفعال غير متوقعة. فخلال العام المذكور، أوقفت الجماعة نشاطها فى الأردن، حيث ذكرت فى نشرة لها أن المملكة قد حظرت الجماعة لقيام أفرادها بالتعاون مع هيئات خيرية يهودية ... على أن ذلك كان منافيا للحقيقة، إذ خلت الملفات الحكومية الأمريكية من أية إشارة تفيد حظر الأردن لأية هيئة خيرية أمريكية. بالمقابل، فإن أحمد كمال ربما يكون قد استبعد لنشاطه لصالح القوميين الفلسطينيين. ففى العديد من كتاباته، أوضح كمال أنه كان يدعم الفلسطينيين ويمد لهم يد العون ... الأمر الذى ربما قد أزعج المملكة الأردنية التى كانت تخطط لتلحق الضفة الغربية بها، وبالتالى فلن تشعر بارتياح تجاه جماعة تنافح عن الحقوق الفلسطينية وتدفع بها قدما. كذا، فقد كان لكمال علاقات وثيقة بأمين الحسينى، مفتى القدس، إذ طلب إليه كتابة تقريظ لكتابه "الرحلة المقدسة"، كذا فقد قام باستئجار رجل يدعى "محمود موفتيتش" وهو جندى بوسنى سابق حارب ضمن صفوف أسراب الدفاع النازية، وتربطه بأمين الحسينى علاقة وثيقة ... و"محمود موفتيتش" هذا كان يخاله "فون منده" رجل أمين الحسينى فى ألمانيا. تلكم التفسيرات تبدو أكثر إقناعا بشأن المشكلات التى واجهت "جماعة الإسلام" من تلك الذاهبة إلى وجود روابط تصلها ببعض الجماعات اليهودية.

أما فى أواخر عام ١٩٦١، فقد أرسلت "جماعة الإسلام" خطابا غاضبا لجميع أعضائها أوردت فيه: "أنها - وعلى امتداد سنوات قلائل قد انصرمت - كانت متروية حذرة، حيث عمدت إلى أن تكون متحفظة فى سلوكها ونهجها، وبخاصة إزاء الكنائس" ... بيد أن الجماعات الدينية الغربية قد قاومت "جماعة الإسلام" بازدراء. وذكر الخطاب الغاضب أن "الظروف قد أجبرت جماعة الإسلام على الاعتراف بأن تحفظها، إجمالا، كان نهجا خاطئا". كذا، فقد ذكر الخطاب أن "مجلس إدارة الجماعة قد اجتمع فى السابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦١ بفندق

شيراتون نيويورك حيث قرر أحمد كمال أن الجماعة قد تراجعت عن تعهدها بالامتناع عن اللجوء إلى الممارسات المتطرفة". كذا، فقد حذرت "جماعة الإسلام" السلطات الغربية ونصحتها بانتهاج تكتيكات مغايرة لئلا تخسر دعم الشعوب الإسلامية ومساندتها ... وفى اليوم التالى مباشرة عقب ذلك الخطاب، أعلنت الجماعة استبعادها لأحمد بلاغى، وذلك لأسباب قانونية - على أن يتم العمل بهذا القرار على الفور.

ومن وجهة نظر عوام بيروقراطى بافاريا، فإن ممارسات "جماعة الإسلام" تعد غير مفهومة. فنظرا لكون أحمد بلاغى شديد الحماسة والنشاط، آمن الجميع بأن الجماعة تدير مشروع بناء مسجد ميونيخ. فتلال الخطابات وسيل الزيارات والأنشطة الدعائية لبلاغى قد جعلت مسئولى بافاريا يخالون أنهم يتعاملون مع منظمة إسلامية كبرى، لا جبهة عمليات يديرها رجل واحد. لقد وثق الألمان بأحمد بلاغى، ذلك الجندى السابق بإحدى الوحدات "المسلمة" إبان الحرب الكونية الثانية. إن المسئولين قد كانوا محقين فى ارتيابهم بشأن تصرفات "جماعة الإسلام" .. وقد تزامن طرد أحمد بلاغى مع تحلل الجماعة وانفراط عقدها.

هذا، وقد عمدت واشنطن - ربما بدافع من سعيها لكبح جماح أحمد كمال، أو ربما بمحض المصادفة - إلى إصدار الأمر بفحص مستندات إدارة "جماعة الإسلام" لبرنامج الولايات المتحدة للاجئين ... فالجماعة قد حملت برنامج اللاجئين بنفقات ملصقاتها ومنشوراتها، وكذا بإعلاناتها عن سيرتها وتاريخها الطنان، وآن الأوان لرد تلك النفقات، فضلا عن نصف راتب المدير الأوروبى والأموال التى استخدمت وقيدت كنفقات إدارية ... وهى نفقات لا تمت بأدنى صلة إلى اللاجئين.

أما مسئولو ميونيخ المعنيون بالأمر، فقد كان يتم إعلامهم بتطورات الموقف أولا

بأول حيث لجأوا فى النهاية لفون منده التماسا للمساعدة، حيث قام باستدعاء أحمد بلاغى وخليفته تهامى الواحلة – كل على حدة – إلى دوسلدورف. أما الواحلة، فقد أتى بدعاوى فارغة لا سند لها، إذ زعم أن بلاغى شخص فاسد. أما بلاغى فقد أورد أن "جماعة الإسلام" قد زعمت أن ثمة أربعة آلاف لاجئ قد عمدوا إلى الاستيلاء على بعض أموال برنامج الولايات المتحدة للاجئين، فى حين أن حقيقة الأمر هى كون عددهم الفعلى أربعمائة لاجئ فحسب. كذا، فقد قام بلاغى بتحذير المسئولين البافاريين بأن يكفوا عن تمويل "جماعة الإسلام" ... ذلك "لأنها ستعمد إلى قصر استخدام الأموال على أغراض البروباغندا الخاصة بها، بما فيها الدعايات المناهضة للمسيحية." أما "فون منده"، فقد كتب مذكرة ذهب فيها إلى أن أحمد بلاغى قد تم فصله، على الأرجح، بسبب كونه أكثر ولاء للألمان من ولائه للأمريكيين. وكأنما ليشدد على تلك النقطة، عمد "فون منده" بعدها بأيام قلائل إلى كتابة خطاب مفاده اعتزام أحمد بلاغى افتتاح مطعم صغير للمسلمين، ورغبته فى التعاون مع مسئولى ألمانيا الغربية فى رفدهم بأية معلومات قد يطلبونها.

وفى الأول من آذار/ مارس ١٩٦٢، أعلنت "جماعة الإسلام" إعلانا غريبا آخر مؤداه أنه بعد عامين فقط من نشاط "الجماعة" بألمانيا، فإنها قد اعتزمت على الرحيل عن البلاد لتحول مسارها صوب إفريقيا جنوب الصحراء. ونظرا لكون القرار نافذا من فوره، فإن "الجماعة" ستغلق جميع مكاتبها لتنوه بأن أية مراسلة مستقبلية يمكن توجيهها إلى "سان فرانسيسكو" بالولايات المتحدة الأمريكية. وعندها ... شعر المسئولون الألمان والأمريكيون بالارتياح فتنفسوا الصعداء. وفى السابع من الشهر ذاته، أرسل "المجلس الأمريكى للوكالات الطوعية" خطابا إلى نظيره الألمانى جاء فيه: "إننا نؤمن بأن كلينا قد تخلص من هم مشترك". بيد أن "جماعة الإسلام" لم تنقل نشاطها إلى إفريقيا، بل لقد تلاشت فلم يعد لها وجود

ألبتة ... إذ رحل تهامى الواحلة إلى الجزائر لينضم إلى حكومة جبهة التحرير الوطنى، وبعدها بسنوات قلائل يرجع أحمد كمال إلى كاليفورنيا ليستأنف أنشطته السرية.

إنه لمن العسير معرفة ما يمكن الخلوص إليه من تلك الأقاصيص الغريبة. فمن الأرجح أن يكون أحمد كمال قد آمن بالنزعة التبشيرية لجماعة الإسلام بصفتها أداة للخلاص والتحرر، فضلا عن إيمانه بدوره كمنقذ ومخلص للمسلمين المضطهدين أينما كانوا ... كذا، فمن الأرجح أن يكون كمال مؤمنا بأن الاستيلاء على الأموال الأمريكية هى وسيلة مشروعة لمساعدة الشعوب الإسلامية. وربما حين أضحت نشاطاته جد غريبة، محرضا على الإثارة فى الضفة الغربية أو رافدا الجزائر بكميات كبيرة من الأسلحة - أن عمدت الولايات المتحدة الأمريكية إلى نفض يديها منه. إلا أن حقيقة الأمر هى أن أحمد كمال لم يكف عن التعاون مع الاستخبارات الأمريكية، وأنه - بطريقة أو بأخرى - قد ساعد الولايات المتحدة بعرقلة مساعى "سعيد رمضان". ولربما كان دور كمال فى ميونيخ أشبه ببوليصة تأمين - أو بالأحرى خطة بديلة يتم اللجوء إليها حال فشل رمضان فى تحقيق مهامه. أما بحلول عام ١٩٦١، فإما أن يكون أحمد كمال قد أضحى غير ذى أهمية - فلم تعد تعن الحاجة إليه مجدداً، وإما أن يكون قد أفلت زمامه فأصبح عصيا على الترويض أبيا على التدجين. وعلى أية حال، فقد طويت تلك الصفحة إلى الأبد، وأضحت "جماعة الإسلام" أثرا بعد عين.

وبسقوط أحمد كمال، صار الألمان يتلقون النبأ السار تلو الآخر. إذ كتب أحمد بلاغى يخبر فون منده بأن الجنود السابقين قد ضاقوا ذرعا بسعيد رمضان، وصاروا يرغبون فى اختيار "على قنطمير" مسئولا عن مسجد ميونيخ ... على قنطمير القوقازى الشمالى، ذلك المحارب القديم والمناضل العتيد الذى يحظى

باحترام واسع النطاق، فضلا عن كونه موضع ثقة فون منده. إن قنطمير لقادر على توحيد الفصائل والشروع فى تشييد بنيان المسجد. أما مخططات رمضان لبناء مسجد جليل مهيب فسيتم التراجع عنها، ليحل محلها موضع أصغر مساحة من الممكن تدبير نفقات إقامته، وذلك لكى يؤدى المسلمون فيه شعائرهم وصلواتهم ... إن الألمان قد اهتزوا طربا ونشوة ... فأخيرا يبدو أنه صار بالإمكان كبح جماح رمضان والأمريكيين – على السواء.